

استقلال وهوية وصمود

بقلم الياس بجاني

مسؤول لجنة الإعلام في المنسقية العامة للمؤسسات اللبنانية الكندية

تعاودنا ذكرى استقلال لبنان في عيده السنوي، وهو منتهك، منهوك، ومسروق، وبه مفتوك من قبل تتر وبربر ومغول يدعون الاخوة القابنية، ويرفعون راية العروبة الوهم والجل. ولكي نكون أمناء على تضحيات شهدائنا لا بد من العودة بشفافية إلى أسباب معاناة الوطن المستمرة وقهر وتعذيب واضطهاد أهله منذ ١٥٠٠ سنة وما يزيد.

يمكن اختصار الأسباب بالهوية اللبنانية التي كانت ولم تزل ألف وباء كل غزوات همج الجوار، وتعديات زنج وطروادي الداخلي. فلقد تعددت أسباب غزوات الآخرين على أرضنا وتعديهم على شعبنا الوادع وتنوعت بتنوع وتبدل أدوات القتال وظروفها ومموليها والمنتفعين منها، إلا أن استهداف الهوية اللبنانية، حضارة وتجذراً وقيماً، كان ولا يزال السمة الأبرز في مجرى كل تلك التعديات.

نحمد الله على مؤامرات وحشية فشلت، حطمها المقاوم اللبناني بعناد شرس وبقي متمسكاً بهويته صامداً في وجه الشدائد والحدثان، راسخاً بالمبدأ والإيمان، رافعاً بعرس الكبرياء رايات الحرية والتعايش والسلام. ميزة لبنان الفريدة هي أنه بلد الطوائف والحضارات المتنوعة المتعايشة مع بعضها البعض بتفاعل طوعي دون إكراه، وبصهر دون قهر، رغم مواجهات داخلية دامية في فترات من التاريخ كانت طاحنة وتدخلات قوى خارجية خبيثة كانت دائما المحرك الخلفي لها. فأجواء الحرية المؤمنة لجميع الشرائح ساعدتها على حفظ خصائصها التراثية والحضارة والدينية على حدٍ سواء وقوت مناعتها في وجه غزوات التعصب والأصولية والجهل.

هذه المميزات النعم، أعطت لبنان طابعه الشمولي وجعلت من سكانه بغالبيتهم قوماً متجانساً متمسكاً بالهوية اللبنانية التي هي عسارة هوياتهم وحضاراتهم واثنياتهم وتقاليدهم والعادات.

تعلم اللبناني الحر بالممارسة المبنية على القناعات الحضارية أن التنوع الطائفي يفسح مجالاً واسعاً لكل شريحة من النسيج اللبناني كي تعبر عن أصالة الخير فيها وعن قدسية دعوتها، واقتنع عن إدراك أنه مهما اختلفت زوايا الرؤية إلى الله فهي لا تختلف في حقيقة جوهره تعالى، ويبقى هو وحده الخالق القدير ومصدر كل خير لجميع اللبنانيين. فلا يجتهدن أحد من شرائحهم في احتكار علاقة الله لتمر عبرها، ولا يسعى أحد لحيازة كل خيراته عن طريق إلغاء الآخرين من شركائه في المواطنة والوطن، لأن الآخرين هم أيضاً من صنع يدي الله، وهو الديان القدير.

اقتنع اللبناني الحر إن جميع العبادات تتوجه إلى الله الواحد، الذي يتقبلها كلها بمقدار ما فيها من صدق وثقة، وانه يعلم ما في القلوب والنيات ولا تغشه مظاهر التعبير والأسلوب، فلا يدعي أحد انه الأفضل أو الأقرب أو الأوحده، وان الله عليم بالمقاصد وكاشف النيات، ولو أراد لجعلكم أمة واحدة! لكنكم أجمعكم خير أمة جعلت للناس.

إلا أنه ورغم النجاح النسبي لتجربة التعايش والتنوع الحضاري ضمن أطر الهوية اللبنانية والتفاعل مع دول الجوار بشكل صادق وحضاري فإن البعض ظلّ يحاول، ولم يزل، فرض هوية بديلة للهوية اللبنانية لا تمت لواقع اللبنانيين بشي متخذاً لها من اللغة والدين والخذعبات الجغرافية وما سمي زوراً "العروبة" حججاً، متناسياً أن لبنان عُرف في تاريخه القديم والمعاصر بأنه ملتقى الحضارات ومحجّة الأديان وقبلة الشعوب ومنجد اللغات.

فمنذ الألف الرابع قبل المسيح تعاقب على أرضه وحارب كنعانيون وفينيقيون، وآراميون ومصريون وفرس ويونان ورومان وعرب وصليبيون وعثمانيون وأوروبيون وسوريون. وتعددت فيه اللغات: ففي الأصل كانت اللغة الفينيقية اللغة الأم (فينيقي نعت كنعاني، والكنعانيون هم اللبنانيون الأصليون)، رافقتها اللغة المصرية والبابلية للتعامل. وفي ظل الحكم الفارسي (٥٣٩ - ٣٣٢ ق.م) كانت الآرامية لغة الإمبراطورية الرسمية إضافة إلى الفينيقية في لبنان. وفي حقبة الحكم اليوناني (٣٣٢ - ٦٣) أصبحت اليونانية لغة الثقافة موازية للآرامية اللغة الأم. ومع الحكم الروماني أصبحت اللاتينية لغة القانون والإدارة، إلى جانب اليونانية لغة الثقافة، والآرامية اللغة الأم. مع الفتح العربي (٦٢٥) بدأت العربية المفروضة من بني أمية تنافس الآرامية السريانية إلى أن حلت محلها كلغة. وعلم العثمانيون التركية، وكانت المدارس تُعلم وما زالت الفرنسية والإنكليزية، كما تعلم الأرمن الأرمنية.

أجل حان الوقت ليعن رافضو كيان لبنان الوطن النهائي لكل أهله إفلاسهم وهم من العروبيين والبعثيين والسوريين القوميين، والأمميين والخمينيين، وغيرهم من ناكري انتمائهم للهوية اللبنانية. حان الوقت ليعترف هؤلاء قولاً وفعلاً أن الوحدة في التنوع في إطار هذه الهوية اللبنانية المميزة هي حضارة لبنان وخيار السواد الأعظم من أبناء شعبه المتعدد الأعراق والحضارات والأديان، وأن هذا التنوع الذي يُعرف بالخصوصية اللبنانية وبرسالة لبنان الإنسانية إلى دول وجماعات الجوار، كما إلى العالم بأسره هو ضمانة لحريرتهم وحرية باقي اللبنانيين، وإذا فقدهما، لا سمح الله، فقد مبرر وجوده، وفقدوا هم فسحة الحرية الوحيدة المتروكة في منطقة الشرق الأوسط بأكملها.

الخصوصية هذه أنتجت ميثاق لبنان الوطني ونظامه السياسي. فالميثاق هو العيش المشترك بين المسيحيين والمسلمين الذي يلتزم به المسيحي اللبناني بالتخلي عن نزعه إلى العلمنة بالمفهوم الغربي وعن الاحتماء بأية دولة غربية، والمسلم اللبناني يتخلى عن نزعه إلى التيقراطية الإسلامية وعن الاحتماء بأي دولة عربية أو إسلامية.

ويحدد الميثاق الوطني مبادئ هذا العيش المشترك من خطاب الرئيس بشارة الخوري يوم انتخابه في ٢٠ أيلول ١٩٤٣، ومن البيان الوزاري الأول لرئيس مجلس الوزراء رياض الصلح في ٧ تشرين الأول ١٩٤٣. من أهم مبادئ الميثاق:

*لبنان جمهورية مستقلة استقلالاً تاماً ووطن نهائي لجميع أبنائه، سيد حر مستقل، في حدوده المعترف بها دولياً.

*لبنان عضو مؤسس وعامل في جامعة الدول العربية وملتزم موثيقها، كما هو عضو مؤسس وعامل في منظمة الأمم المتحدة وملتزم موثيقها والإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

*لا وصاية ولا حماية ولا امتياز لأي دولة كانت ولا وحدة ولا اتحاد مع أية دولة كانت.
*التعاون لأقصى حدود مع الدول العربية، بحفظ التوازن بين الجميع، والصداقة مع جميع الدول الأجنبية التي تعترف باستقلال لبنان الكامل وتحترمه.

*لا شرعية لأي سلطة تناقض ميثاق العيش المشترك.

على أساس هذا الميثاق، قام النظام السياسي في لبنان مميزاً عن سائر الأنظمة السياسية في بلدان الجوار والبلدان الغربية، وعلى هذا الأساس توافقت الشرائح اللبنانية كافة على التوحد ضمن أطر الهوية اللبنانية. وقد انبثقت من هذا النظام السياسي خصائص ميزت لبنان عن سواه من دول الجوار هي:
النظام البرلماني الديموقراطي، الوفاق الوطني، الحريات العامة وفي طليعتها حرية الرأي والمعتقد والاقتصاد الحر، والحوار التوافقي في شؤون البلاد والسياسة التي ينص عليها الدستور مثل:
تعديل الدستور، الحرب والسلام، والمعاهدات مع الدول.

هذه الحضارة اللبنانية، التي تشكل تراث لبنان والتي هي حصيلة تفاعل وحوار حياتي وسياسي طويل مع لاش بين مختلف الثقافات والحضارات المتتالية على أرضه، هي التي مكّنت اللبنانيين، وما زالت من الصمود بوجه مؤامرات التقسيم والتوطين وتغيير النظام، ومن تجاوز أشد مراحلها أثناء سنوات الحرب الضروس.
إن الهوية اللبنانية التي هي ميزة لبنان قد صمدت في الماضي ولها النصر كتب، وستصمد أيضاً في الجهاد حفاظاً على إرث جدود إلى ما شاء ، ولن تتمكن كل قوى الحقد والشر والأصولية من تهмиشها أو استبدالها بغيرها من الهويات. فلنحافظن على هذه الهوية النعمة ونقوي انغراسها في الضمائر ونرسمها في الوجدان، كما في مقادس تراب لبنان.

٢٠٠٤/١١/٢٢